بكر أبوبكر

ثلاثة شروط بسيطة



قصص قصيرة

٩٠ صفحة

٩٠ شروط
١٧٠ لم ٧
١١٨ مواقع
٨٠ الفقر
٤٥٨ صفحة

بكر أبوبكر

متفرقات الحورية

- لم في ٢٢ عاما
- تداني وتساني وخصوبيتها
- ليليا في معطف الفراشة

الربيع اللقاء الاول ١٣/١/١٩٩٥
الثاني ٢٤/٤/٢٠١٤

ثلاثة شروط بسيطة !

قصص قصيرة

الكتاب: ثلاثة شروط بسيطة

الكاتب: بكر أبو بكر

السحب: 1000 نسخة

ر. د . م . ك: 978-9973-866-15-8

تونس: 2008

مطبعة فن الطباعة
42 نهج المختار عطية – تونس
الهاتف : 738 349 71

خاطر القلب!

في عيد الأضحى المبارك وبينما كنت أترقب ضوء النهار خطر في ذهني خاطر لمع برق خاطف ثم غاب ، اشتد ثم غاب ، وكما جال في بالي فيما سبق .

تحيرت كثيرا في تفسير كُنه هذا الخاطر المتموج ، إلا أن وقعه كان في نفسي خطيرا إلى درجة أنني تمنيت أن يعود إلى اللّمعان ثانية، فأتعرف عليه واكتشف .

أجهدت نفسي في استذكار ما ظهر لي كصورة أو صور مكدسة خلال ثوان لم تتعدى الخمسة ولكن جهودي هذه باءت بالفشل ، أيام عديدة ومرات عديدة .

أخذت حماما ساخنا واسترخيت على السرير، علّ الخاطر يعود منتعشا عفيّا ولا فائدة ، ولأنني كنت قد قرأت أن الحليب يجلب الاسترخاء والنوم حاولت أن أشرب كوبين من الحليب فلم استطع إكمال الأول... قلت

لنفسي: لربما إن نمت أحلم بالخاطر الذي خالجني لثوان معدودة، ولا فائدة ، لقد أسعدني وأتعسني.

كانت أمي قد رحلت عن هذا العالم منذ سنوات ثلاثة إثر رصاصة اخترقت فيها القلب وهي تنظر من شرفة منزلنا إلى (معركة) غير متكافئة اشتبك فيها مجموعة من المقاومين مع قوات إسرائيلية مؤللة في قلب مدينة نابلس، مدينتي .

خلال خمس ثوان كانت الرصاصة الآثمة تخترق منها القلب والظهر و خمسين عاما فتخلف لي قهرا مستوطنا وكمدا مقيما، و لمعات تأتي وتروح .

عندما سقطت أمي كشجرة البرتقال كانت حياتي تتكسر أمامي كما الزجاج ، وكانت حلقات ذاكرتي تتداعى حتى أفرغ مني ما في الدماغ فلم يبق فيه ما يمكن استعادته ، لقد ماتت حياتي وانشق مني الفؤاد ، أمـــــــــــي .

عندما لمع في ذهني ذاك الخاطر الخاطف مرات عديدة وهذه المرة كان أول ما حاولت استعادته منظر عينيّ أمي حين انتزعت منها الرصاصة ضياء العين

وحاسة النطق وبهاء الطلّة، ولفظة الله يعطيك العافية فلم أتمكن من إكمال مقاطع الصورة التي تشكلت صعبة مخضبة ذلك اليوم .

مقاومة شديدة ، عنيفة هو التوصيف السليم لما واجهته من حارس مخزون الذاكرة في عقلي فلم استطع أن استدل على شيء فيها ... بيضاء دون سجلات ظلت ذاكرتي لسنين ثلاث ، وكلما خطر في ذهني ذلك الخاطر العابر حتى في عيد الأضحى المبارك.

لقد (كبسل) تاريخ حياتي في خمس ثوان وأدرج القريب والبعيد في حلقة أو (كبسولة) ضمت ثلاثين عاما وآلاف الحوادث وآلاف الصور وآلاف الابتسامات وآلاف اللمسات وآلاف الدعوات التي كانت تحيطني بها والدتي ذاك الزمن اللذيذ.

لمع ذهني بخاطر عابر، ولكنه عبر في عقلي عبور المنتقل من الشطئان إلى حيث القرار المكين .. لذلك فكرت طويلا وجهدت في التذكر طويلا ولم استطع أن أحدد كنْه (اللمعة) الرئيسية في الخاطر المتراكم، إلا حينما داهمتنا قوات الاحتلال مرة أخرى.

في هذا اليوم الجديد بعد سنين ثلاث، التمع في عيني والذاكرة بريق قداحة... كان يحملها ذاك الجندي المخمور بالدم والذي أشعل لفافة ضمها بين شفتيه وأطلق كتلة كبيرة من الرصاص.

مجردا من الإنسانية أطلق من بندقيته حمما كثيرة متتابعة على مجموعة من الشباب الأسرى المواجهين للحائط رافعين أيديهم مباعدين بين أرجلهم .

ما أن التمعت القداحة مرة ثانية ليعيد إشعال (سيجارته) حتى كان الرجال يتساقطون ويقع قلب أمي الطري بين يدي، وفي حضني، وأمام وجهي المبلل بالدمعات .

التمع الخاطر في ذهني فأمسكت بالقلب وأدخلته جوف صدري ورميت القداحة ، لأن القلب الدريّ المضيء قلب أمي كان يلمع في ذهني ويغيب.

يعود حينًا ثم يغيب ثم يشتد فيعتصرني ثم يغيب، والقداحة الاحتلالية والفوهة لا تفارق المشهد الدامي لسنوات ثلاث دون أن أدري أو أحدد المعنى والصور ، ولا تغيب.

أسعدني الخاطر حيث منه أمي وأتعسني حيث الفوهات والموت والرجال المجندلين، ولكن في القلب مازال الكثير الكثير .

فلسطين– رام الله في **2004/3/16**

حديث (الأرجيلة)!

ربما يكون الكلام مع شخص آخر مدعاة للتنفيس عن حالة احتقان أو أسى أو قرف أو احتباس ، أو بغرض الحوار والتأثير أو الاستعراض أو لمجرد قضاء الوقت أو الثرثرة ، وفي جميع الأحوال أدمنت الكلام والتعامل مع الأحرف والكلمات ، ولم يكن لأحد أن يجلدني لوما عندما أوقف سائق (التاكسي) لأحدثه طويلا ، أو أقف عند بائع الفلافل لأكثر من ساعة وأنا أثرثر معه متحدثا عن حكومة محمود عباس (أبو مازن) ، وأهمية دور محمد دحلان أو هاني الحسن في الحكومة ، ومتحدثا عن حاجز عين عريك وحاجز قلنديا وحاجز سردا وحاجز عطارة وكلها من الحواجز التي أضطر للمرور عبرها لا سيما وعملي كموزع للبضائع يستدعي سياقتي السيارة واختراق الحواجز بطرق وأساليب مخاطرة أوقعتني لمرات عدة تحت نيران جنود الاحتلال وبالتالي فان لدي ثورة من المواقف التي أحب

أن أسردها تفصيلا وتفصيلا لا ينقصه ناقص ولا يترك شاردة أو هائمة .

لم يكن بائع الفلافل أو سائق (التاكسي) أو شرطي المرور بالملابس المدنية الأشخاص الوحيدين الذين ينضبطون حين سماعي ، و إنما هناك قائمة طويلة أخرى تبدأ من جارنا أبو محمد وأبو فيصل وأبو الخناجر ولا تنتهي عند أطراف البلد .

مختصر القول وأنا لا أحب الاختصار هو أنني أصبحت مشهورا على صعيد منطقة رام الله والبيرة بدءا من ساحة المنارة حتى سلواد ، ومن ساحة الساعة إلى دير قديس ، حتى أنني عزمت أمري أن ارشح نفسي لانتخابات المجلس التشريعي القادمة ، فهم لا يفعلون إلا ما أتقنه أكثر منهم .... ألا وهو الكلام ثم الكلام ثم الكلام .

كانت أزمة السير خانقة في وسط رام الله رغم تفعيل الحواجز المحيطة بالمدينة بمعنى أن لا مركبة من

قرى الجوار تستطيع الوصول ، ومع ذلك فان المركبات تصرخ وأصحابها من كل جانب ، حتى بت لا تميز هل الصراخ يصدر من السيارات أم من الناس ، وهل (الزمامير) طبيعيه تخرج من حناجر السائقين أم من أبواق السيارات ؟

كان اليوم يوم عيد ، ورغم أن الأعياد في فلسطين مناسبة تعيسة من عدة نواحي أبرزها نتانة الاحتلال ، وصاعقة الوضع الاقتصادي المنهار الذي لا يفهم منه ابنك إلا حاجته لشراء ملابس جديدة أو الذهاب إلى مطعم ليأكل (بيتزا) في العيد أو لتشتري له بندقية بلاستيك ... تصور !! والبلد محاصر بكافة أنواع الحصار الذي عرفه العالم والذي لا يعرفه وبكافة أنواع الأسلحة المعروفة وغير المعروفة ! ويأتي ابنك ليزيدك غما وكمدا وطالبا بندقيته بلاستك .

المهم أن زحمة السير الخانقة في وسط رام الله كانت بسبب هذا العيد ، فالكل من سكان المدينتين أي رام الله والبيرة يريد أن يتسوق أو يتفرج على الأغلب

على ما رآه لمئات المرات في المدينة من بضائع بائسة لا تتغير ، تمثل فائض المستوطنات أو (زبالة) البضائع الإسرائيلية ، أو ما تسمح بدخوله المعابر والموانئ الإسرائيلية من مواد مقلدة صنعت لتستخدم مرة واحدة فقط بدءا من الحذاء إلى المذياع الذي يغني لساعة أو ليوم وعلى الأكثر لأسبوع يودع بعدها الحياة هو والحذاء والقميص والساعة والسكين والقلم .

في زحمة السير لا أحد يستمع لأحد ، ولا يملك الجميع إلا الشتم أو الصراخ أو الصمت ، وكنت وسأفاجئكم بأنني في مثل هذه الحالة أكون من الفئة الثالثة ، فأنا في حالات الالتحام الحديدي بين المركبات أؤثر الصمت ، وأبدأ في الثرثرة مع نفسي ، وانفعل ذاتيا إلى الحد الذي قد أصل في ثرثرتي وجدالي الذاتي لمستوى الضرب في (مقود) السيارة أو الكرسي أو الزجاج الأمامي أو حتى الهواء ، أو (التابلوه) !! ولا تلوموني فالانفعال المتصل بالتوتر والاحتقان والرغبة في التنفيس لا مخرج له عندي في ازدحام المكان إلا ذلك .

وربما تعلمت الصمت وأنا الثرثار ، والصبر وأنا الملول ، ومما أدخل إلى قلبي لحظات من السعادة اعتصر نفسي مرارا لأصلها هو اكتشافي قدرتي على مخادعة الجنود الملولين المتثائبين والالتفاف عن مدى بصرهم وسيطرتهم ، لأوصل بضاعتي للقرى المحيطة بمدينتي رام الله والبيرة ، وان ذلك والله لنعمة قد لا يحس بعظمتها إلا ثرثار متمرس مثلي .

كثرثار يستمتع بالكلام كانت الفترات الطويلة التي أقضيها وحيدا في السيارة ، سيارة نقل البضائع ، ساعات وحدة قاتلة وهم وغم وارتباك ، فالغياب عن (الجمهور) الذي يستمع لي سبب لي أفكارا مزعجة من مثل أن أترك العمل ، أو أن أعمل (منادي) سيارات كي لا أتوقف عن الحديث ، أو أن اشتغل بائع (بيوت هويات) الذي لا يفتأ يردد (بيوت هويات) لعشرات المرات على دوار المنارة وسط رام الله ، وكأن الانسان يغير غلاف هويته كل يوم !

كما فكرت أن أعمل مؤذنا في الجامع ، حيث أن مؤذن مسجد بلدنا يلذغ بثلاثة حروف حتى لا تفهم من

الأذان شيئا ، إضافة إلى أن صوتي أجمل منه بشهادة الكثير ، وذلك رغبة في الكلام الدائم حيث أن صوته يسمع خمس مرات يوميا ، وما بينهما ربما يستطيع أن يثرثر مع عدد كبير من المصلين ... تركت هذه الأفكار جانبا ، واستطعت بعد جهد جهيد أن أواصل عملي ولكن بعد أن تعلمت أن أتكلم مع حديد السيارة وهذا علم جديد قد لا يتقنه غيري ... أشكو له أو لها أي السيارة وتشكو لي ولا تضحكوا فأنا أحس بها ، وإذا كنتم مقتنعين أن الحمار يحس فالسيارة كذلك ولا تقولوا لي أن الحمار لا روح له ، أبدا فالروح اكتشاف التواصل مع الآخرين فمتى ما حصل فالآخر يتكلم ويحس ويشعر، وإلا فكيف نتكلم ونتفاعل ونتعلق مع أدوات ووسائط هي جمادات مثل الهاتف والتلفزة والمذياع والكرسي والحاسوب .

ولعلمكم فان لي أصدقاء يحبون حواسيبهم أو هواتفهم النقالة أكثر من زوجاتهم ، وأنا في المقابل أحب سيارتي وأكلمها وأدللها ، لا سيما أنها كانت مدخلي لاكتشاف مفهوم جديد للثرثرة مع الحديد في ظل

ساعات الحبس الطويلة داخل المركبة ، وإن رأيتم في ذلك مرضا نفسيا أو جنونا فلا أظن أحدا هنا بمنجى من ذلك ... وسامحونا.

كان جاري أبو فيصل يستمع إلي وأنا أتكلم شمالا ويمينا ، وهو ينفث أنفاسا حارقة من (أرجيلته) ونحن جلوس في المقهى العربي في رام الله يوم العيد وحيث الزحمة وأصوات (الزمامير) والناس تزكم الآذان ، أنا مستمر في الكلام وهو ويهز رأسه علامة الموافقة كما أظن ألا ترون معي ذلك ؟ ، وأنا كلي سعادة أنني وجدت في أبو فيصل تلك الشخصية المحببة التي تستمع لي ولا تمل وتستجيب لي وتؤازرني حتى أنني بدأت أفخمه بمناداته (يا أبو الفيصل) أي بإضافة أل التعريف تفخيما وتعظيما... المهم أنه بعد أكثر من ثلاث ساعات من الكلام وأبو فيصل لم ينفك يهز رأسه إلى أسفل ثم إلى أعلى وهو يبتسم لي... قلت له لآخذ راحة من الحديث ما رأيك يا أخ أبو الفيصل فيما أقول ، لكنه لم يجب .. ولما كررت السؤال مرارا دون استجابة مع

تواصل هز الرأس والابتسام قلت له بعد أن هززت كتفه:
لماذا كلما أكلمك تهز رأسك وتبتسم ولا ترد علىّ؟

رفع رأسه وكأنه كان في غيبوبة أو كوكب آخر ، واعتدل في جلسته على الكرسي ، ووضع بربيش (الأرجيلة) على جنب وأبدى امتعاضا من أصوات أبواق السيارات في الخارج وكأنه يسمعها للتو ، وقال : لقد قطعت جلستي ، وتواصلي !! فلقد كنت أصغي وأنصت بشدة لحديث مشوق طال واستطال وكان وما استحال حتى غفلت عنك ، لقد كنت استمع إلى حديث (الأرجيلة) الشجي المثير، ماذا كنت تقول ؟.

بيرزيت 2003/5/6 الواحدة صباحا

شهيد الجدار الأبيض!

كان جثمان أبو الصلابيخ مرفوعا على الأكتاف وملفوفا بعدد من أعلام التنظيمات المتنافسة ، والمشيعين يجولون به أزقة المخيم صائحين مرددين : الشهيد حبيب الله ، الشهيد حبيب الله . ولكن ابو الصلابيخ لم يكن يريد أن يستشهد ، وتروي أمه لنا الحكاية فتقول :

انتفخ بطن أبو الصلابيخ فتوجع ، فانتحى من الشارع جانبا واتكأ على حائط ملئ بالشعارات الثورية والوطنية والإسلامية من مثل حماس هي الأساس ولا لشرب الكاس وأبو دعاس هو الأساس ، وفتح مرت من هنا وسميحة فلفل مرت من هنا ، وفدا تعاهدكم على استمرار الانتفاضة حتى الدولة المستقلة ، وأبو السلاسل يعاهدكم على النصر المؤزر ، والجبهة الشعبية تدين اعتقال أمينها العام ونائبه ، وعبدالرحمن يدين العمليات الانتحارية ... الخ من الشعارات التي تغطي

حوائط المخيم . لم يستطع أبو الصلابيخ أن يفتح عينيه من شدة الألم لكنه استطاع أن يلمح عددا من الشعارات باللون الأزرق والأسود والأحمر واهتزت الكلمات الدائخة أمام عينيه المتألمتين .

فتأوه مرة ثم ثانية ثم تأخخ (قال أخ) ثم تأييَ (قال أي) ، لقد كانت بطنه المنتفخة تضغط عليه ، وساعدت الشعارات المرة الكثيرة التي (تزين) حائط الجامع والوحدة الصحية والكنيسة والبيوت الجميلة ساعدت على ارتفاع درجة حرارة أبو الصلابيخ ، وهو لم يفهم من تجريدية الشعارات ومطلقيتها وعصبويتها شيئا مهما ... فكل تنظيم سياسي أو اجتماعي أو حتى رياضي وكل فرد استشهد أو جرح أو سجن لا ينقل على لسانه إلا عبارات نارية أو متشددة و كلها تعد بالويل والثبور وعظائم الأمور للاحتلال.... فأبو الحسن يهدد قوات شارون بالدمار ، وعبد الخالق سيجعل الأرض نارا تحت أقدام الخونة ، وأبو سريع يقرر أن فلسطين لنا من مطلع الشمس حتى مغربها وبعد ذلك لم يحدد لمن تكون !! ، وعبد الباري ينادي بمقررات مؤتمر

الخلافة السادس المنعقد فقط في جامعة بيرزيت دون العالم الإسلامي المترامي الأطراف !! ، وخليل يصر أن رايتنا ستبقى حمراء حتى بعد انهيار الألوان !!

مازال أبو الصلابيخ يتوجع ويحاول أن يتذكر ماذا أكل بالأمس غير المجدرة ، ضاغطا على بطنه تارة ومتكئا على أحد الحوائط تارة أخرى ، يحاول أن يصل إلى الوحدة الصحية القريبة بصعوبة .. لا لا ليست من المجدرة فلقد أكلتها بايتة أربعة أيام ذات مرة ولم يحصل شئ .. ربما من الجبنة البلدية حيث أكل منها ما يجاوز النصف كيلو ثم يعود ليقول لا ..لا مستحيل ... الشارع مقفر في حرّ يوم ظهيرة حيث تفاجأ بآلام البطن التي ارتبطت منذ اللحظة لديه بالنظر الى الحوائط الملطخة بالشعارات المتفرقة ... يا ليتهم تركوا علب الدهان والرش واستعاضوا عنها بتوزيع الأدوية على المرضى، بالطبع وبماذا يفكر المريض لحظة الألم ؟؟... لا قيمة للشعارات الفارغة إلا إنفاق الأموال وتلطيخ الأيدي والجدران وتشويه منظر البلد والتسبب بمشاجرات وقتل

بين التنظيم الإلهي فلان والتنظيم الرباني علان والنادي العلنتاني.

مرعدد من حاملي عدة تلطيخ الجدران البيضاء بالشعارات من الملثمين دون داع إلا المغاواة و(شوفيني يمّة) ، وكان أبو الصلابيخ قد أخذ منه الألم كل مأخذ فتقرفص وكاد يسقط أرضا.... ألقوا عليه التحية سريعا، وركضوا يتسابقون للوصول لتلطيخ جدار ما زال بكرا ..... لم تمر دقائق معدودة وإذ بأبي الصلابيخ يصرخ صرخة طويلة ليقع بعدها ممدا على الأرض يسبح في دمه كما يقولون ....لقد أصابته رصاصة طائشة من أعضاء الفريقين المتنافسين ..... حيث ثارت بينهما مشادة حول ملكية أي منهما للجدار الأبيض غير الملطخ بالشعارات ، أودت بحياة (أبو الصلابيخ) .

هكذا قالت أمه ولكن بيانات أكثر من ثلاثة تنظيمات نعته كبطل أشوس من أبطال الانتفاضة المجيدة، ومازال المشيعين يرددون : الشهيد حبيب الله، الشهيد حبيب الله .

رام الله في 2003/1/13

في حب الجارة .

كانت تقطن بالجوار ، جميلة ، هادئة ، لا تصدر صوتا أو ضجيجا ، قلما رأيتها تتذمر ، تقضي نهارها صامتة تتأمل ولربما أحببت التأمل من كثرة تأملي في آليات تأملها .

دوام الجيرة يولد الألفة ، والمحبة ، خاصة متى ما كان الجار بالجمال والصفاء الذي تتمتع به جارتي الودودة ، وأنا ألفت أن ألقي عليها نظرات طوال صباحا ومساءا ، وهي ساهمة لاهية ، لا تهتم ولا تلتفت الا قليلا . إنها قليلا ما ترفع رأسها وتدير عنقها الجميل لتنصت لصوت هادر أو أبواق السيارات ...جارتي تحب الهدوء وتكره الصخب ، تحب الراحة وتكره الكرب .

قال لي الحلاق يوما : سلم لي على جارتك ، فكدت استشيط غضبا ، إذ أنني كثيرا ما كلمته عن جمال

ونقاء جارتي ، وهو قلما يستمع ، وكثيرا ما يتندر على، عدا أنه يطرقني دوما بلسان ناقد لوضع قائم أو غائم ، أو بوصف دقيق للمسيرة السلمية ، أو نقد ديني مستفيض لخطبة شيخ الجامع ، أو تعبير عن انزعاج من صوت جيرانه العالي ، كما يحدثني عن نوع الخضار الصحية التي يأكلها ، وكمية الماء التي يجلبها بالبراميل لسد نقص المياه في بيته ، ونوع الأرز الأفضل لعمل المقلوبة ، وشدة الأمطار هذا العام ، ولون عيني حفيدته الرائق ... حتى وصل به الأمر في أحد الأيام لأن يشرح بالتفصيل الفرق بين اليورانيوم المنضب الذي استخدم في حرب الخليج الثانية واليورانيوم غير المنضب الذي استخدم في حرب أفغانستان وفي حرب الأمريكان على العراق كما قال.

من الطبيعي أن يحلق المرء بين يدي حلاق ثرثار ، ولكنني أحب من يستمع إلىّ خاصة والفتنة بجارتي المتينة أخذت مني كل مأخذ ولا أجد من مستمعيّ إلا التندر علي والتفكه فيما أقول ... ومنهم أبو

حسني الحلاق إلى أن فاجأني بالقول سلم على جارتك ... استشطت غضبا ، لأنني لم أعد احتمل سخرياته وسخريات الآخرين.

تراجع أبو حسني عندما وجدني غاضبا مغضبا وقال لي : ما قصدت إهانة أو سخرية وإنما قصدت حقيقة أن سلم لي على جارتك ، لأنني أتوق لرؤياها من شدة ما كلمتني عنها لذلك ما قصدت إلا حقيقة شعوري دون إسفاف أو إساءة .... استعدت هدوئي وأبو حسني يرد السلام على مجموعة من الرجال وقفت أمام المحل ثم ابتسمت فربما يكون أبو حسني معيني وصديقي في التغزل المشترك بالجارة الودودة .

كانت زوجتي في البداية تتقبل مني مديح الجارة وتأخذه على محمل الهزل ، وعندما رأت مني إغراقا في الأمر ، خاصة عندما أجلس على الشرفة في أوقات ثلاثة صباحا وعصرا ومساءا ، أتأمل في عيني الجارة الودودة وفي رقبتها وفي أذنيها وفي جسدها

المتين... أصبحت ضجرة نكدة تصرخ في وجهي ، ولا تستجيب لطلباتي المستمرة وصوتي الزاعق طالبا فنجانا من القهوة اثر الفنجان ... لقد أعلنت زوجتي العصيان التام . وباتت ترى في جارتي عدوّا ، وشيطانا رجيما .

فاجأتني زوجتي في أحد أيام الانتفاضة الطوال بالقول أن الحليب واللبن واللبنة والزبدة وكل مشتقات الألبان البقرية قد انقطعت نتيجة مئات الحواجز التي تفتح يوما وتغلق أياما ، تفتح لتنطلق رصاصات هنا ورصاصات هناك فتصيب الأطفال والرجال والنساء بين شهيد ممدد على قارعة الطريق ، أو جريح ينزف حتى يلحق بصاحبه ... فقلت لها ولماذا انقطعت فقط هذه المواد ؟؟ أجابت : بعدم العلم . ولكن هذا ما بدا من خلو كافة المحلات في القرية من هذه المواد لمدة أسبوع ... تعرف زوجتي مدى حبي للجبنة البلدية وكثيرا ما أشارت لحبي هذا وقارنته أو ربطته بحبي وتغزلي بالجارة المتينة الودودة الهادئة ، بل كثيرا ما قارنت

رائحة الجبنة البلدية برائحة روث البقر وبعر الأغنام ... وأنا لا ألتفت لما تقول بل ازداد حبا للجبنة والبقرة .

لقد تفاجأت من انقطاع الجبنة حقا بعد أيام من الخبر العاجل الذي اتحفتني به حرمنا المصون والجوهر المكنون والدردبيس الحنون ، خاصة وأنا جالس في بيت أبو الخضر جارنا الذي قدم لي إفطارا صباحيا اعتدته كل أسبوع معه ، فيه كل ما يلذ إلا الجبنة ؟؟ فقلت : ما هذا يا أبا الخضر أين الجبنة يا أخي ؟ قال أبو الخضر : مقطوعة يا حبيبي ، ولا يوجد في السوق من منتجات الألبان شئ . قاتل الله الإسرائيليين .. . حتى علف الماشية لم نستطع أن نجلبه لأبقار البلد ، ورغم استعاضتنا عنه بالحشيش وأوراق الشجر إلا أنه لم يثمر كثيرا في كمية الألبان التي كانت تنتجها الأغنام والأبقار في بلدنا على قلتها . قلت لأبي خضر أن هذه نكبة أبشع من نكبة ال 48 ، فهل تريدني أن أعيش بلا جبنة بلدية ؟! استغفر الله العظيم من كل ذنب عظيم .

أسبوعين وأنا منقطع عن العالم حتى المذياع الذي كانت لا تفارقني أخباره لم أعد أهتم به وحتى الشرفة وجارتي الجميلة لم أعد أرى ضرورة للتغزل بها ، أو امتداح قوامها وأذنيها وعينيها وقدميها المكينة ... حتى لاحظ أبو حسني الحلاق فيَّ ذلك فقال : ما بك يا أخي أبو جميل لم تحدثني ولا كلمة عن جارتك الجميلة منذ زمن ؟! قلت له : خليها على الله يا رجل أنا في كرب . قال أبو حسني : يا لطيف خير ! قلت: لقد انقطعت الجبنة ومنتجات الألبان من البلد وأنا لا استغني عنها فتكدرت . قال أبو حسني : إذن أنت في كرب وكدر معا ... تنبهت لصيغته الاستهزائية فلم أجب ، وأكملت كوب الشاي الذي أحضره لي وانطلقت نحو البيت .

كانت رائحة الشواء اللذيذة تنبعث من حديقة الجيران حيث بيت جارتنا الجميلة وذات الجسد المكين ، فتوقفت عند الباب ليراني أصحاب البيت ، ويدعونني لتذوق الشواء ، وهذا ما حصل ... إلا أنني تعجبت من كمية اللحم والألبان التي من المفترض أنها مقطوعة ثي

السوق ... فلم ألق بالا لذلك لأن اللحم السمين لذيذ ، والأكل طيب . وبعد برهة و المعدة كادت تمتلئ والجسم ينحل ويخدر ، لاحظت أن الجارة الجميلة غير موجودة ، فبادرت بالسؤال عنها بعد تردد لم يطل .

ضحك الجيران طويلا ... وقالوا ألا تعلم أننا نحتفل بمولود ذكر ذبحنا له بقرتنا الجميلة... جارتك التي استطعمت لحمها !!! تفاجأت للوهلة الاولى إلا أن طعم الشواء كان مهيمنا... فقلت : مبروك ما جاكم ، ... قاتل الله الاحتلال الذي جعل من مثلي يتلوى من فقدان الجبنة ، أو يتغزل في بقرة ... فعلا أن الاحتلال مدخل الخبـــــــال .

بيرزيت في 2003/5/29

ثلاثة شروط بسيطة !

كانت تجلس إلى الطبيعة حيث الماء يتدفق بين الصخور محركا عددا كبيرا من الحصى والرمال في انتقال لطيف بين البقاع والأمكنة، تعبث بيديها في صفاء النمير ، وتدرك عمق الآهات من لمسات الماء المنطلقة من يديها إلى شعاعات عقلها وزهور قلبها الوارف المخضر .

كانت أنيسة تحب اللون الأخضر، فلا يستريح بصرها ويهدأ عقلها ويركد توترها وصفو ذهنها إلا حين تجلس على تلك الصخرة قرب مجرى الماء الصغير وتطلق سراح بصرها لينمي عشقه اللوني بالطبيعة أخضر بأخضر.

في أيام الصيف والخريف والربيع وحتى أيام الشتاء البارد، لم تكن لتضن بجلساتها على تلك الصخرة الرفيقة الأنيسة الصديقة، تكلمها أحيانا وتبث للماء المتدفق لوعات القلب وآهات الألم وزفرات الحسرة.

عرفت الصخرة في القرية باسم صخرة أنيسة لأنهم متى ما افتقدوها في البيوت أو الحقول أو المجمع الصحي لا يتجه فكرهم إلا نحو الصخرة وجدول الماء وبالفعل يجدونها تقبل الماء وتلثم الصخرة وتتأمل الأخضر.

أنيسة فتاة جميلة يافعة تعمل ممرضة في المجمع الصحي في القرية، تخصصت في تضميد الجروح وإعطاء الحقن والتوليد ولكن ذلك لم يكن من مميزاتها وإنما كان طبيعة عملها، إلا أن ما ميزها بين الجيران والمرضى هو رنة الأمل في صوتها وضحكة التفاؤل تشع من بين عينيها العسليتين النجلاوين وعناصر الشوق للحياة في صدرها، وضياء الايمان والارتباط مع عناصر الكون والطبيعة.

كانت أنيسة لا تنفك تتحدث لكل المرضى، وهي تحقنهم أو تضمدهم أو تربت عليهم عن ضرورة الامتزاج بالخضرة والماء، وانتصار الروح على الشرور، واقتحام السرور لمراكب الظلمة وقدرة النفس على امتشاق سيف النهار تقطع به عناقيد الحلكة والألم

والتبرم والحقد والتجهم والرياء وكافة السيئات أو المثالب.

لطالما رددت أنك بشعورك المتكاثف والمترابط مع تلك الصخرة أو تلك النبتة أو تلك الشجرة تشكل عاملا جاذبا للطاقة الايجابية في تلك الكائنات فتلتف حولك حول جسدك حول روحك، حول فكرك فلا تقع في سقطات الآثام أو مهالك الشرور.

عاشت وهي تعتقد أن لا فضل للإنسان على الكائنات إطلاقا و الفضل لله الواحد الأحد الذي بسط نعماءه على الكائنات وسخر للإنسان الحجر و الثمر والشجر والحيوانات، و أطلق له عنان الفكر و العقل دون غيره من كائنات الأرض ليتعلم العشق نعم ليتعلم العشق، عشق الصخرة و الحصوة و شقائق النعمان، عشق الماء و السماء و حب الرمان ، عشق النفس وهبات الرب وعشق الناس.

كانت تُدخِل الخضرة في جسدها فتتشع ايجابية و إصرارا و تحد، تشكل حولها نطاقا كهرومغناطيسيا جذابا لا يستطيع الآخرون إلا أن يدخلوا في مجاله

المتسع فيتغير حالهم من حال إلى حال، هكذا كانت أنيسة و هكذا أسست لمدرسة العشق و الاحتضان للنورس و الحميض و القمح و ماء الغدران.

ساء البعض من رجال القرية ونسائها ذلك فحاكوا حولها الروايات والقصص وقامت النسوة بعمل الحجب لأولادهن حتى لا يتأثروا بسحر أنيسة أو عينيها النجلاوين واخضرار عودها وصفاء سريرتها.

لم تكمل دراستها الجامعية و لكنها تعلمت مهنة التمريض فأتقنت، و تماهت مع الطبيعة فجذبت، وأرسلت علائق إيمان مع الخالق و بذور الشوفان حتى كان المرضى يأتون من القرى المجاورة ليشفوا متأثرين بمجالها الحيوي الإيماني الطبيعي.

عندما تكون أنيسة في الثلاثين أو الخامسة والثلاثين من عمرها تصبح عانسا ولا ينطبق ذلك على الرجل في بلادنا ، لذلك لم تستطع أنيسة الجميلة الرقيقة اليدين دفعا لسيل العرسان خاصة وان الله حباها جمالا زاده عمران الروح والقلب جمالا على جمال ... إلا أن الرفض المتكرر قد أوغر صدورا لم تجد لها إلا أن تتهم

وتبث الشائعات فهي تذهب إلى جدول الماء حيث الصخرة لمقابلة عشاقها ولما كانت تواجه بذلك ... كانت تضحك طويلا ولا تنكر . إلا أن الرقابة الطويلة لها من عدد من شباب القرية والذين منهم كان الفرّان وعامل الألمنيوم وصاحب الدكان وإمام الجامع وصاحب محل (الانترنت) وبائع الحليب لم يكن لها جدوى فلا هي تقابل أحدا ، ولا هي تواعد إنسا ولا جانا ، فلم يكن من بد أن تتهم بالبلاهة أو السفه الذي سرعان ما يتبدد عند أول مقابلة معها أو حديث .

كان عبد الباسط من الذين منوّا النفس بالزواج من أنيسة إلا أن الشروط التي كانت تضعها –وحتى بعد أن كبر سنها– لم تنطبق على أحد فهي تريد شابا بمواصفات ثلاث تقول هي أنها بسيطة ... بسيطة جدا ولطالما رددتها على أمها ، وعلى أبيها قبل أن يغادر الحياة مكتئبا أنه لم يزوجها، وعلى أخوات ثلاث لها أصغر سنا ومتزوجات ، ورددتها لجميع طلابها ، تقول أنيسة : أريد عريسا يتمتع بصفات ثلاث بسيطة لا غير

أولا : أن يكون بإيمان الصخرة

ثانيا : أن يتمتع بقدرة الجدول على التدفق

ثالثا : أن يطير كما (أبو سعد)

ولما لم يكن لأحد من أذكياء القرية أن يفهم ذلك كانوا يحاولون التشكيك بعقلها فيفشلون ولا يفهمون، ولكنهم يعودون تحت ضغط جمالها المركب جسدا وروحا ليطلبوها ثانية وثالثة محاولين فك ألغاز طلباتها الثلاثة البسيطة الممثلة لشروط العريس ، وكان من هؤلاء عبد الباسط الذي لم يستسلم لمدى يزيد على عشر سنوات ظل فيها يرقبها تكبر وهو يكبر ويأمل أن يحقق شروطها الثلاثة البسيطة؟! .

طالما تمحك وادعى المرض ليراها ، وكثيرا ما افتعل المناسبات ليقوم وأمه بزيارة بيت أهلها ولقائها والحديث معها .... كانت لطيفة المعشر ، ندية الأفكار ، لذيذة الدعابة وهو ما كانت تواجه به إصرار عبد الباسط على الزواج منها فتارة تقول له : وكيف تقبل يا عبد الباسط أن تكون حجرا أو صخرة ؟ فيقول أقبل وأنا بضعفيَ إيمانها أو أكثر. فتقول له: وهل تستطيع أن تتدفق كالماء السلسبيل وأنت بهذا الكرش المترهل؟ فلا

يمض شهران حتى يكون قد قضى على كرشه المتدلي ولا فائدة . فتقول له لا أظن لعريض المنكبين مثلك أن يطير كما (أبو سعد) فيفهمها – أو هكذا يظن – أن يغير من طريقة لبسه وشكله ولا فائدة .

في السابعة والثلاثين يصبح الارتباط الزوجي في بلادنا للفتاة في المحطة الأخيرة فإما زواج ناجز وإما لا أمل بالزواج إلا ممن تجاوز الستين، ورغم تخطي أنيسة لهذه المحطة وهي اليوم في الأربعين وثلاثة سنوات فوقها إضافية من عمرها إلا أن طلابها ما زالوا يمنون النفس بالزواج منها وعلى رأسهم عبد الباسط إمام الجامع المتقاعد الذي سخط عليه المصلون فخلعوه من الإمامة ووضعوا مكانه أبو فلاح لاتهامهم عبد الباسط بسوء السلوك لملاحقتة أنيسة رغم عفة طلبه وعدم إتيانه لأي نقيصة أو سيئة .

انتقل عبد الباسط ليعمل فرانا وهي مهنة أبائه فاكتشف وانبهر وشاهد وتأمل ، وتعلم وأدرك ، وتفتحت الآفاق أمامه. اكتشف قوة الصخور الصغيرة من حصى

و(رضف) تحت أرغفة الخبز ، ورغم لهيب النار عبادة وألفة وسكون وتجل ، واكتشف أهمية تدفق الماء من مكونات الخبز عشقا وعبادة وعيونا فازداد ايمانا بالله وآلائه ، وبمركبات الطبيعة وحيث إبداع الخالق... اكتشف قانون التماهي مع الطبيعة وقانون عشق المحيط ، وقانون جاذبية الاخضرار فأصبح وجهه يشع من الضياء ما جعل من عمله ومخبزه قبلة للزبائن والمحبين وما جعل من رغيف الخبر يضحك بين يديه ويقدم نفسه للناس بمحبة العلماء وصفاء روح المتصوفة .

لاحظت أنيسة في ما بعد الأربعين من عمرها التغير في سلوك عبد الباسط وطريقة حديثة ولاحظت ازدياد مجال تأثيره وغرامه بعمله والناس والنباتات وصخور القرية حتى أصبح يزاحمها على صخرتها الأنيسة وعلى جدول الماء وتمنت حينها أن يتقدم لخطبتها حتى وهي لم تلاحظ عليه قدرته أن يطير كما يطير (أبو سعد) ، إلا أن انهماك عبد الباسط بعمله وتفحصه لمتغيرات روحه ومستجدات أنعم بها الله عليه

جعله ينخرط كليا في عمله ونفسه وان لم يكن قد نسي أنيسة في ذلك إلا أنه وهو لم يكتشف بعد كيف يطير كأبي سعد ، ما زال يتقدم ويعتقد أنه في الطريق إلى ذلك ...

رام الله 2004/6/9

صبا تحت المطر !

ما هو الإحساس الذي يخامرك وأنت تستقبل القطرات الثقيلة المتسارعة للمطر الهاطل فوق رأسك ؟! وما كُنه الشعور الذي يعتريك ويتلبسّك وأنت تسير تحت سيل من الشآبيب ، وتحت انهمار متدافع أجرى من تحت رجليك وفي قنوات روحك المتعبة سيولا طويلة وأنهارا؟؟!

وكيف ترى الحياة في ظل البرد والمطر والبعد والقرب والأنا والشريك ؟! لا سيما وأنك مضطر لقطع مسافة تزيد عن كيلومترين مشيا أو عدوا مختبئا تارة وبارزا تارة ؟! خشية أذى متوقع أو موت متحفز .

في الوضع الطبيعي من الطبيعي أن يعبر الانسان عن مشاعره بالقبول أو الرفض هكذا ببساطة ...كأن يقول أنني أشعر باللذة والنشوة ، وحبيبات المطر الرقيقة تشعرني بالقرب وتعانق شعري ورقبتي وعيوني وصدري ....أو كأن يقول أنني لا أحب السير في

مجاري الأمطار ومطالع النجوم وتحت سخط الغيوم المغرقة للمشاعر والشريك وقمح القلوب ... فالتقلب والتغير والتنوع من الحر إلى الدفء إلى البرودة درب حياة وسَنة ثابتة ، ارتبطت بالتقلب والتغير والتعدد للناس ، وفي التغير والتقلب والتنوع في آلاف الأفكار والصرخات والحيوات في ذات الشخص النابض أيضا .

أما أن يفكر الشخص بموقفه ، شعوره، بالقرب والبعد والبرد والحب تحت المطر مضطرا ودون إرادة منه ، مجبرا ودون رغبة فيه فلذلك شأن آخر ، ومشاعر ربما أكثر رقة أو دقة أو أكثر شدة .

صبا هو اسمها ، وصبا في عيون أمها فرس جموح ونشوة زبرجدية تحت المطر أو في خلجات القلوب رغم القهر والقتامة ، وصبا في عين والدها تعبير عن حالة اخضرار دائم وتورد صباحي مسائي لا يزول وغزالة تجرى دون توقف في مساحة شهيق المرج وزفيره المتواصل ، وصبا عند أخيها أحمد روح منطلقة وهدير معركة ...وصبا عند وائل شريك الغد وعنوان المستقبل القادم زهرة صاخبة الألوان كثيفة

البتلات ، وصبا عند أهل بلدها وفي عين المحبين نظرات طويلة سخية وقلب وادع وأنامل غضة ومرقاب للنجوم يحتسب الزمن بدقة .... منذ أن التقت صبا وائل الشريك أصبحت العيون الأربعة لامعة وضاءة ترى الأشياء بنفس السعادة والفرح ، منذ القطرة الأولى التي هطلت عليهما متباعدين في الجغرافيا ولكن متقاربين في استنشاق نفس النسمة والوشوشة والعبير .

شعور جميل هما الكلمتان اللتان عبرت بهما صبا عن حالتها النشطة تحت المطر ، ولذة طاغية هما الكلمتان اللتان توقعتهما من فم وائل الذي التقت معه على حب أحمد والليل والمطر .... في الخليل يقطن وائل وفي طوباس مسقط رأس صبا ، وما بين بيرزيت حيث الجامعة والخليل طريق مغبر أو مطين ، مليء بالقذائف والنفوس الفاسدة وبالرصاص والكراهية والعنصرية ، طريق طويل متخم بالمغتصبين وجنود الاحتلال ، قطاع الطرق والدبابات ، ناقلات الجنود ومركبات نقل المعتقلين التي تشبه مركبات (الكوكا كولا) ، طرق مغلقة بالتراب والطين أو المكعبات

الاسمنتية أو الأسلاك الشائكة وطرق محفورة لأعماق تجعل الوصول إلى بغداد أسرع وأقرب من الوصول إلى الخليل..... ليل يغشى الحجر والدواب والبشر حتى أصبحت الرؤية أو البسمة أو الضحكة أو همسات الشفاه في الآذان الناصتة بشغف مفقودة ..إلا أن صبا خضراء المشاعر تحب المطر وتحب القرب وتحب الليل رغم الاحتلال ، وتحب البسمة لا بل وتتحدى وستتزوج .

قبل أشهر ثلاثة طرقت القوات الخاصة الصهيونية ذات ليل حالك بيت أهل صبا في طوباس ، وكان الطريق شديدا مرعبا مما جعل الأطفال في البيت وعند الجيران (يفزّون) من نومهم فزِعين باكين ، وما جعل صبا المتدثرة بلحافها في بيرزيت تجزع ولا تنام ... ولما تأخر أهل الدار في فتح الباب لإصلاح شأنهم وضع الغزاة متفجرة أطاحت بالباب وما حوله .

دخل النازيون الجدد يدمرون –وما أكثر ما دمروا – ما يصادفهم من كراسي وطاولات وخزائن وفرشات وأدوات مطبخ وهدوء وسكينة وأمل ...وذلك في خضم بحثهم عن " الإرهابي المطلوب أحمد" كما يدعون وهم

الإرهابيون والمطلوبون ... ولما لم يبقَ في البيت حاجة أو أحاسيس إلا وخدشوها أو عبثوا فيها بالرصاص والأيدي والألسن والمدافع التي يحملونها بين صرخات الأطفال ونحيب النساء وهمهمات المسنين توجهوا لأبي أحمد وضربوه ، واعتقلوه معصوب العينين مصفد اليدين ... طالبين من زوجته أم صبا أن تسعى لتسليم ابنها أو يُنقل والده على ذمة السجن .

خرج أحمد الطالب الجامعي المسالم ذو الوجه البيضاوي المنير من خلف البيت صائحا هأنذا أسلم لكم نفسي فاتركوا والدي الشيخ الكبير الهرم فانفجر بالبكاء... انقض البرابرة على أحمد ركلا وشتما حتى أدموه في كافة أجزاء جسده أمام والدته واخوته ووالده الشيخ الهرم المصفَّد ، وأمام أعين الجيران . ولما انتزعوا هويته ...بدا أحمد أخو صبا البطل الشامخ والفدائي الشرس والمجاهد الشاخص نحو النصر، فلم يحتملوا نظراته وشبابه وشموخه وحبه للمطر والليل وملاعب الصبا..فأطلقوا في جسده خمسين رصاصة

وسكينا جعلته يرفد مساحة واسعة من تراب فلسطين بدمه النازف مطرا .

مات أحمد مبتسما فلا حزن بعد ذلك ولا برد ولا خوف و...أوصى بحب الدروب والماء والبغلة العجوز والشتاء ويوم الفصل ووالديه وعيون الحديد وصبا .

عندما عادت صبا في عطلتها الدراسية من جامعة بيرزيت إلى مسقط رأسها طوباس كانت مثقلة بهدير ليلة الشهادة وذكريات الفدائيين ، تمشي كمن يزحف وتدنو وتتباعد ... أقبلت على البلد من مغربها أين زارت أحمد ، فوجدته يقف شامخا مرحابا كما عهدته عند باب القبر...رافع الرأس مبتسما كعادته ، قرّبها وأسرّ لها في أذنها أن صديقه وائل يرغب بالزواج منها ....بكت على كتفه طويلا ، ما فات من الأيام وحضن الذكريات ، والاقحوان المبثوث في السهوب ، وأزيز الحشرات في بهيم الليل ، وكعكة عيد ميلاد أحمد ، والطابون ... وأجرت من دمعها مطرا بلّل القبر ووجهها ، وعين الشمس ، والنباتات التي تحيط بالقبر بحنان عزيز ومحبة لافتة ووجع الفقد الكبير .

في الوضع الطبيعي من الطبيعي أن يعبر الإنسان عن مشاعره بالقبول أو الرفض هكذا ببساطة ... ولكن في إشكالية الاحتلال والشهادة تصبح المشاعر قلقة حامية والحياة متوترة ، والقرار يهتز عند كل خبر يتناهى إلى السمع أو حادثة تقص في حضن ليلة باردة في غرفة من غرف السكن الجامعي ضمت صبا وصويحباتها الأثيرات ، وفي الوضع الطبيعي من الطبيعي أن يعبر الإنسان عن مشاعره بالقبول أو الرفض هكذا ببساطة ...ولكن أن يتحكم الاحتلال بمفاتيح القلوب ومفاتيح الحياة جميعا فذلك مدعاة للتفكير مليا في كُنه الشعور الذي يخامرك وأنت تستقبل القطرات الثقيلة للمطر الهاطل فوق رأسك ورأس صبا ...وأيضا مدعاة للتحدي !

أعلنت خطبة صبا ووائل على أصوات الزغاريد رغم أنف الاحتلال ، وعادت الى بيرزيت لتطير الفرحة من نوافذ السكن الجامعي الذي ضمها والطالبات اللواتي أقمن حفلة على عين الاحتلال ووطأته البغيضة.

وائل أوصى أخاه على بدلة العرس التي وصلته الى الخليل بعد مشوار طويل من أخيه الدارس في مدينة الموصل في العراق ، وصبا انطلقت من بيرزيت حيث تقطن قرب جامعتها الى رام الله لتختار ثوب العرس مما يمكن استئجاره بثمن معقول في ظل فقر الأيام وحلكة الليالي وضيق المعيشة وتمرد العيون ...تنقلت بين عدد من المحلات القليلة وحيدة ساهمة متأملة ... دون أمها أو أختها أو خالتها تحت المطر والبرد وحريق القلب ، حتى نالت مبتغاها ثوبا أبيضا ناصعا جميلا يليق بليلة الارتباط ، وارتحال الفؤاد وسمو الأمنيات واعتصار الروح في جوف الوطن .

من البعيد كان ثلاثة من الجنود الإرهابيين اليهود ينظرون مشدوهين الى فتاة مكحولة ، غضة العود ، حلوة الملامح ، ذات شجن وأنفة تحمل ثوبا أبيضا طويلا تتقدم راكضة في مسافة الكيلومترين الفاصلة بين مدينة رام الله وقرية سردا باتجاه سيارات بيرزيت وهي المسافة الإجبارية التي أقامها قطاع الطرق من جنود الاحتلال في وجه السيارات كي يجبروا

الناس على المشي قسرا وجبرا وذلّة ... من البعيد بدءوا يبربرون بلغة ميتة ، ويتضاحكون على هذه الفتاة التي تحتضن بين يديها لهفتها و أملها وتحديها الأبيض للموج الأسود القاتل وقهر العلوج .... بدءوا يتهامسون يريدون مضايقتها ، ومنعها من المرور وإيقافها مع عديد الطلاب من زملائها المصلوبين منذ ساعات تحت المطر وعلى قارعة الطريق والأيام الثقيلة .

استمرت صبا في السير مع عشرات المشاة في الاتجاهين الرائحين منهم والغادين ، ماشية حينا وراكضة حينا ، والمطر مازال يهطل ، يبلل فيها الشعر والصدر والرقبة والروح والضياء والأحلام وثوب الزفاف ....لا بأس فهي عاشقة المطر والطريق والليل والطين الأحمر والابتسام رغم أولئك.

قبل أن تصل الجنود ، وقبل أن يرضوا غرائزهم السادية بمضايقتها كانت الطلقات النارية أسبق إلى رقابهم ..... فسقطوا مضرجين بدمائهم ، لتمر صبا بكل عنفوانها وحبها وقلبها الهادر الصغير إلى حيث النور الطالع ....في الوضع الطبيعي من الطبيعي أن يزول

الزائل وينتهي ، وأن يسود الخالد وليله ينجلي...ولتواصل الغزالة الجري في رحابة المرج الأخضر .

بيرزيت 2003/2/13

القائد أبو كفاح وال 700 دولار .

كان يتطور ، يكبر ، ينمو في عمله ، بحيث أنه لم يقبل أن يبقى في مستوى مدير ب ، إذ سرعان ما استطاع أن يقترب من مديره العام بسرعة قياسية ، قليل من الحنكة وكثير من التزلف جعله يجلس على مقعد نائب المدير العام ، ولكن شخصيته الجديدة التي لا تعرف القناعة أو ترضى القليل ، وشخصيته التي لا تأبه بأحد في سبيل تحويل الأحلام إلى واقع معاش جعلته يستغل قدراته بالحديث الجذاب ، والمديح إلى درجة التزلف في خلع مديره العام والجلوس في موقعه ولما يمر عليه في العمل سنوات ثلاث .

في خضم اختلاط الأوراق مع بداية نشوء السلطة تم ترشيح أبو النافع – وهذه كنيته – لمرتبة مدير ب ، رغم أنه لم يتحصل على أي شهادة إلا من

بضع سنوات اشتم فيها رائحة الكتب ولم يجهد فيها نفسه ليتعلم سوى الكتابة والقراءة ، إلا أن واقع التوازنات والحساسيات والمحسوبيات جعله في موقع ليس له أهل وليس له كفؤ (ومثله مثايل) .

هكذا حدثنا عبد البديع أحد أصدقاء أبوالنافع الجدد في وزارة السياحة الفلسطينية ولأننا استطبنا حديثه رغبناه بأن يكمل مقابل أن ندفع عنه ثمن المشروبات والشيشة في جو جلستنا اللطيف حيث رام الله بعد العشاء في مقهى (أب سايد داون) تزخر بالحياة .

قالت أم النافع وهي زوجته : أن أبو النافع كان يتقدم في موقعه في وزارة السياحة يوما اثر يوم ، يزداد تأنقا، ويزداد (نفخة) ، ويزداد حركة ، ويزداد تواصلا مع عدد كبير من الناس ...

أضافت : كنت أظنه يرغب بترشيح نفسه بالانتخابات من كثرة العلاقات التي ارتبط بها مع عدد كبير من الناس لم نعرفهم سابقا ، حيث الداخل داخل

والطالع طالع ، حتى مللت وضججت ، ولم استطع أن أقول كلمة فأبوالنافع لا يسمع مني . تبين لي لاحقا ما جعلني أفكر مليا في افتكاك ارتباطي برجل أمضيت معه عشرين عاما لا تسألوني أكثر من ذلك فلقد تغير كثيرا في العمل ، وفي البيت .

أبوالنافع الأربعيني المتكرش ذو الوجه المتفجر حيوية والعيون المتراقصة مثال حي للفساد في جسد السلطة الفلسطينية الوليدة . حمل معه حلما بالوطن وناضل وقاتل وكافح إلى الحد الذي اعتبر حياته كلها وحياة إخوانه وأبنائه وجيرانه والفران والسمان وبائع العرقسوس وجارتهم اللبنانية الجميلة فداء للوطن ، إلى أن صدمه اكتشاف سيل الأموال التي تتفجر كالنبع بين أصابع مسؤوله منذ كان صبيا في أحد المواقع في لبنان إلى تونس ثم إلى الوطن .

في الوطن تدرج أبو النافع الذي أتقن التزلف في مرحلة السياحة في تونس -ولكنه كان قد أبقى على

قليل من العفة المالية ما دامت كتب المساعدات تغطي اللازم . أنا لا أسرف ،هكذا كان أبوالنافع يخاطب محدثيه: أنا أفعل كالآخرين أتقدم بكتاب تلو الكتاب واستلم المساعدة ولا أمد يدي لأسرف كما يفعل أبو اللآلئ وأبو العجايب وصديقي الأثير أبو العواصم أو مسئولي الذي تعرفونه .

في بيروت حينما التحق أبوالنافع بالثورة رأى البحر من عيون صلاح خلف ورأى فجر يافا يبزغ من رداء خليل الوزير ونام ودعائه بالتوفيق يشمل جميع أعضاء اللجنة المركزية لحركة (فتح) وأحيانا جميع أعضاء المجلس الثوري أيضا ، وأعضاء المكاتب السياسية لكافة التنظيمات فهم قادتنا قدوتنا كما كان لا ينفك يردد أبوالنافع في وجه كل زملائه . توقف عبد البديع عن الكلام قليلا ليسحب جملة طويلة من أنفاس الشيشة المنطلقة على حسابنا من فمه الكبير، فيما كنا نترقب أن يكمل بفارغ الصبر.

بقي من ميزانية مسؤوله أبو كفاح مبلغ 700 دولار من تلك الميزانية التي لا يحاسب عليها لأن المصاريف السرية التي تذهب لدعم تنظيم الوطن وثواره يجب أن تبقى سرية ، والحساب يوم الحسا ب ... المهم أنه في يوم من الأيام بقي من هذه الميزانية 700 دولار وضعهم أمين صندوق أبو كفاح على الطاولة ، ظهرأبو النافع في المشهد واقفا كالطود الشامخ والفدائي العتيد ينتظر الأمر بالانصراف ... رفع أبو كفاح وجهه ، وعدل من وضع نظارته ، وترك قلمه الذي كان يوقع به عددا من الأوراق وقال ناظرا إلى أبوالنافع : هل تعرف مقاس حذائي ؟! رد أبو النافع مستغربا : لا يا سيدي ؟ قال له أبو كفاح : انه 42 ؟ فلم يجد أبو النافع ما يرد به على أبو كفاح إلا أن قال : حاضر سيدي . فهو ما زال في قمة الالتزام والانتماء واللياقة ... قال أبو كفاح : خذ هذه ال 700 دولار واذهب إلى محل سيدلك عليه أبو القاسم – وهو أمين صندوقه – واطلب من صاحب المحل أن يختار لي حذاء واحضره معك فورا ، توقف للحظة ثم أشار بأصبعه وقال :هو يعرف ذوقي ... كاد

أبو النافع يعترض ، ليس على طبيعة التكليف الثوري لا سمح الله ولا على مقاس القائد أبوكفاح معاذ الله ولا على الحديث بمثل هذا الأمر أمام أمين الصندوق حاشا وكلا ، وإنما على كبر المبلغ وحرص أبوالنافع على أموال الثورة ورغبته في صونها وألا يضيعها .... إلا أنه آثر الصمت محدثا نفسه أنه سيعيد الباقي في جميع الأحوال ...

ذهب أبو النافع إلى المحل المذكور في شارع الحمراء في بيروت ، وحدث البائع بطلب القائد أبو كفاح. أعلمه صاحب المحل أن أبو كفاح زبون دائم . اختار له حذاء ايطاليا مميزا وأخذ ثمنا له كامل المبلغ طلب أبو النافع رد الباقي . حلف البائع أن ثمن الحذاء ألف دولار بالتمام والكمال ولكن (كرمال عيني وقدميَ القائد أبو كفاح) خصم 300 دولار ، فكانت هذه الصدمة الكبرى الأولى لأبوالنافع . هكذا قال عبد البديع وطلب –على حسابنا بالطبع– كاسة كوكتيل دوبل وساندويش شاورما .

أما الصدمة الثانية –حيث استطرد عبد البديع وهو منتشيا– فكانت في تونس . قال : ترقى أبو النافع ليصبح إضافة لعمله كمرافق للقائد أبو كفاح أمينا للصندوق بعد استشهاد أمين الصندوق السابق أبو القاسم في حصار بيروت 1982. تفتحت عيناه على أساليب وفنون السرقة التي أقلها أن معظم الميزانية كانت تصرف بلا حسيب ولا رقيب على أم كفاح وعلى كفاح وعلى ناهد وفداء وخديجة أبناء القائد الجهبذ أبو كفاح الذي تعرفونه مشيرا ببربيش الشيشة الى وجوهنا واحدا واحدا وما كنا لنعرف أفضل منه .

لطالما تألم أبوالنافع متسائلا: لماذا يفعل ذلك إنه قائد عظيم و مخصصه كبير وامتيازاته كثيرة ، ولكن لماذا لماذا؟؟ كتم الأمر عن أم النافع والكثيرين رغم ما يرى ويسمع من الحالات الشبيهة ... إلا أنه في هذا الجو المريض سقط من حول قيم أبوالنافع حزامين من أحزمة الحصانة . لم ينفعه عنفوانه الثوري السابق ورغبته بالتضحية التي تحولت إلى الصفر ولكنه بقي رافضا لمد يده والسرقة . إلى أن انتهت مرحلة الثورة

كليا وعاد إلى الوطن العزيز الذي كان يحلم بالعودة له ليلا نهارا . وهنا تثاءب عبد البديع طالبا الإذن بالرحيل فقمنا جميعا وألزمناه كرسيه ليكمل الحكاية .

لم تختلف حال القائد أبو كفاح مع مرحلة بناء الدولة . فالأموال ظلت بين يديه ومصائر الناس أيضا ، وأم كفاح مازالت ترفل بثياب العز والحرير ولكن حال أبو النافع تغيرت كليا فانفتاحه على عالم الفساد في الوطن مع عالم الفساد القادم منه بحصانة ضئيلة .... قضت على كل مقاومة باقية لديه .

ارتبط ارتباطا فاحشا بعدد من أمراء الفساد من السُرّاق وتجار الممنوعات والعملاء . أغروه بما لا يطيق أو يحلم –رغبة في استغلالهم لموقعه– إلى الدرجة التي انفصل فيها عن القائد أبو كفاح ، وبدأ يعمل منفردا ولحسابه الخاص .

في هذه المرحلة كان أبوإياد وأبوجهاد والشهداء عامة قد تحولوا في عقيدة أبو النافع إلى مجموعة من الأغبياء أو أولئك (الذين ماتوا وراحت عليهم) ،

وانقلب دعاؤه لهم إلى الدعاء عليهم ، وأصبح المجد للدولار والجنيه والفرنك الفرنسي وأخير لليورو .

قام النادل في المقهى بتغيير رأس الشيشة أربع مرات على ما نذكر وعددنا ما لا يقل عن خمسة مشاريب راحت كلها في معدة عبد البديع فلما قام وقد أنهك كل الإنهاك بسبب ما أكل وشرب ، قال : هيا بنا نقوم جميعا إلى بيت المرحوم أبوالنافع لنعزي معا وتستشعرون الحدث بأنفسكم .

رأيناها فكرة جيدة . قال عبد البديع وكأنه يقرأ بعض تحفظاتنا : لا تقلقوا فإن هذا الوقت المتأخر لا يعني شيئا فنافع صديقي كأبيه وادخل بيته متى أشاء ، هيا بنا .

دخلنا بيت أبوالنافع في ضاحية البالوع في رام الله . بيت واسع ، مليء بقطع السجاد واللوحات ، وعدد كبير من أواني الكرستال وفرش بيت كأنه اشتري بالأمس . تقدمنا من نافع وأمه بالتعزية وترحمنا على

أبو النافع رغم ما أشيع حوله من اتهامات بالعمالة لا يجزم أحد بصحتها.

أم النافع التي كانت ترفض الحديث المسهب عن زوجها كما علمنا من عبد البديع بالطبع، بكت أمامنا بكاء مرا. وقالت دون أن نستحثها وكأنها كانت راغبة بالفضفضة : الله يرحمه أبو النافع لقد أضاع عمره الطويل في آخر 4 سنوات . لقد عاش حرا طليقا ، وعاش عفيف اليد واللسان أربعين عاما إلى أن... ثم توقفت عن الحديث !!!

لقد قتلت مجموعة من كتائب شهداء الأقصى أبو النافع بتهمة العمالة وذلك أثناء انتفاضة الأقصى والقدس والاستقلال بعد أن ضبط متلبسا بتبادل المعلومات اثر لقاء مع أحد ضباط الإدارة العسكرية الإسرائيلية في بيت إيل وبعد أن تم التحقيق معه وأقر إقرارا دون جبر بارتباطه بالعدو منذ فكر في شراء المرسيدس 500 الفخمة كما جاء في بيان الكتائب ، والله أعلم .

عادت أم النافع ، الصبية المحيا رغم الهم والتفجع ، عادت للبكاء ثانية . ابنها نافع غاضب أشد الغضب لبكائها أمامنا على ما يبدو قدم لنا القهوة السادة وهو محنقا.... غيرت أم النافع من جلستها وزفرت زفرة طويلة و قالت: كان فاسدا ربما أو هكذا يصفونه ، وكان يتعامل مع مشبوهين ربما ، وكنت أحذره من كثير من أصدقائه الجدد نعم ، ولم يكن يستجيب نعم أيضا.... ولكنه ما كان عميلا أبدا ، ثم أضافت : لقد تغير كثيرا ، لقد تغير كثيرا في آخر أيامه ، ولكنه الرجل الذي أحببت ووثقت به وعاشرته الله يرحمه . نظرنا في عيون بعضنا وفي عيني عبد البديع بإشارة للخروج من البيت فوقفنا استعدادا للخروج وفي أنفسنا الكثير خاصة وأحزان أم النافع قد تفجرت في وجودنا .

قالت أم النافع : أنتم مثل إبني نافع ولكن ما أود قوله هو أن لعنة الله على القائد أبو كفاح .. هو السبب.

سعير[1]

عبد القديم هذا كان اسمه ، ورغم أنه كان رجلا لطيفا ، إلا أن اسمه كان من الأسماء النادرة والتي تثير الاستغراب ، وطوال حياتي لم يمر علي شخص بنفس الاسم إلا آخر أظنه مسؤول حزب ما ، ورغم أن القديم من أسماء الله الحسنى إلا أن وقعه في الأذن كان يعطيني إحساسا غريبا ، ان صاحبه أشعث أغبر وقصير القامة لا أدري لماذا ؟ ولكن هذا الإحساس كان يراودني كلما مر عبد القديم من أمام دكاني .

كان عبد القديم مهندسا معماريا يجاورني في المبنى الذي أمارس فيه تجارتي المتواضعة من خلال دكان لبيع المعلبات والخضراوات وخلافه ، وارتبطت به بعلاقة عبر صندوق الدخان الذي يمر ليأخذه كل صباح وهو يهم دخول مصعد البناية .

---

[1] كتبت في 2002/2/22 أول أيام عيد الأضحى المبارك ، بيرزيت ، فلسطين . وطبعت ثالث أيام رمضان في2003/10/28 .

عبد القديم رجل مرح طويل أشقر الشعر ، ليس فيه أي دلالة أحسها حينما أتذكر أسمه لا بل وكان مهندما حسن المظهر ما يخالف إحساسي المقولب بالاسم ، كان مهندما ربما لأن مهنته تفرض عليه ذلك أو لطبع فيه لا أدري ، المهم أن علاقة علبة الدخان قربت بيننا قليلا .

مرت تتأمل زجاج المحلات والبضائع المرتبة خلفه . لم يكن فيها ما يثير ، فهي امرأة عادية الجسد والملامح والمجلس لا تغري أحدا بالكلام معها ، لذلك لم يطل أصحاب المحلات النظر إليها وطفقوا يتحدثون معا.

والموسم كساد والزبائن قلائل ، يتفرجون ويذهبون ، ولكنها أثارت عبد القديم الذي أعطيته صندوق الدخان كالعادة وخرج من الدكان ليجد المرأة أمامه .

يبتسم لها ودون قصد يسلم عليها فترد التحية ويتعارفان سريعا ، وطرق مسمعي من بعيد اسمها الذي فاق استغرابي لاسم عبد القديم ذاته ، لقد كان اسمها

(سعير) نعم سعير أي جهنم أو نار موقدة تلك التي تطلع عليها الأفئدة .

في اليوم التالي جاء عبد القديم المهندس المهندم الأشقر وعلى محياه أمارات السعادة والفرح . توقعت أن تكون سعير هي السبب وهذا ما كان . لقد كان يومهما طويلا كما حدثني ابتدأ بالأسماء وانتهى بمشروع زواج :

- هكذا بسرعة
- نعم ولم لا وكلانا متطابقان بدء من الأسماء
- وما علاقة القديم بالسعير
- إن السعير موجودة منذ القدم ، ومعدة للكافرين كما الجنة ، وهي من مخلوقات الله
- ولكن ذلك فأل غير حسن فالسعير عذاب وحريق
- وسعير خطيبتي في عينيها عذاب وحريق لمن يتركها !

- إن كان بينكما تفاهم فلا حرج على الأسماء ، واعذر تدخلي
- شكرا لاهتمامك
- بالتوفيق إن شاء الله

لم يعجبني تفسيره للعلاقة بدء من الأسماء ولكن ما شأني أنا والوفاق قد وقع ، أرحت نفسي وقلت لها هو رجل غرائبي يحب كل ما هو غريب بدء من أسمها انتهاء بتفسيراته .

غابت الحادثة هذه عن بالي طويلا ، ولم ألحظ أهمية لغياب عبد القديم عن شركته لشهور لظني زواجه من سعيره .

من أحد زملائه تبينت لاحقا أنه يرقد منذ فترة في المستشفى فعدته ، وعلاقتي فيه مرتبطة بصندوق الدخان علاقة محترمة .

وجدته وحيدا في غرفته المتواضعة في المستشفى .

- كيف حالك

- الحمد لله

- وكيف حال المدام

- أي مدام أنا لم أتزوج .

- وسعير

- أنـها المشكلة .

– وأضاف عبد القديم وهو يتأوه : لقد كانت سعير خطيبتي التي تعرفها ، تريد شقة باهظة الثمن وأثاثا ملوكيا أو جهنميا وذهبا لا تأكله النيران ، وعرسا في لهيب الفنادق الكبرى وثوبا أحمر غريبا لا أبيض للزفاف ، تصور! .

– ثم ماذا ؟

– ثم تعددت طلباتها ولم استطع مع كل محاولاتي أن أحد أو أخفض من طلباتها النارية , وكنت أمني النفس يوما بعد يوم بالتواضع بطلباتها مع طول العلاقة ولكن لا فائدة .

– حال صعب ، وسعير مستعر ، كان الله في العون.

- أضاف كأنه لم يسمع تعليقي الأخير : إلى أن أدخلتني بيت أهلها وهناك عزمت ألا ارتبط بها وتذكرت حديثك التلقائي عن الأسماء .

- طلب مني لفافة تبغ وأشعلها وهو على السرير ثم قال : لقد كان اسم أبوها سقر تصور سقر وهو من أسماء جنهم كما يعلم الناس أجمعين ، أعاذني وأعاذك الله منها ، بل والأسوأ أنه يكنى أبو سعير.

- أبو سعيد ، هذا كسر للقاعدة .

- ياريت ، أرأيت لقد ظننت أنت ما ظننته في البداية أنا ، حيث اعتقدته أبو سعيد فإذ به أبوسعير على اسم ابنته البكر .

- هكذا اتسقت الأسماء ، صحيح . وكنت أكتم ضحكة كادت تنفلت مني .

- بل و ازيدك أكثر ، اسم أمها لهوب وأخواتها وقيد وحمراء ونيران وأخوها قذاف اللهب على وزن قذاف الدم .

-لم استطع إلا أن أضحك عاليا حتى غضب الطبيب في الغرفة المجاورة الذي جاء مسرعا يطلب الصمت بأدب ، فتأسفت له ، وقلت لعبد القديم : فعلا جحيم .

- تيقنت أنني داخل جهنم لا محالة ، ومن يومها كسرت رجلي على باب بيتهم ، فلذت بالفرار لأنني لو أوقدت سيجارة واحدة لاشتعلت والبيت نيرانا لا تنطفيء.

- المهم الحمد لله على سلامتك .

و اقتربت المسافة بيننا أكثر و ضحكنا معا وأشعلنا سيجارتين وطفقنا ندخن سعيرنا في الغرفة بمزاج .

كليوباترا على سور المدرسة

وقفت وسط ساحة المدرسة و صرخت أنا الملكة كليوباترا!؟ كانت الطالبات يتوزعن بين الساحات و الممرات و الصفوف. يتجاذبن الأحاديث و يتحاورن. يراجعن بعض الدروس. و منهن من جلست على العشب الأخضر تدير مناقشة حول برنامج في التلفزة لليوم الفائت. و تجمع عدد منهن حول مدرسة العلوم المحبوبة و هي تشرح في الساحة عن نظرية جديدة عن الأجسام أو الجسيمات متناهية الصغر بأسلوب شيق جعل من الطالبات يحببنها أثناء الدرس و بعده....إلا كليوباترا.

في وسط باحة المدرسة رفعت صوتها ثانية ، علّ بعض البنات لم يسمعنها و رددت أنا الحاكمة المطلقة و الفكر المستنير، أنا صاحبة الجلالة و العقل الكبير، أنا كليوباترا بنت الأمراء و الملوك و صاحبة العرش و الصولجان و السر الكبير... التفت إليها

مجموعة صغيرة بدأت تقترب منها و هي تخطب مطلقة يديها تعبر عنها شمالا و يمينا، تتأمل تكاثر الحشود بشعور طاغ بالنشوة و القوة.

انفضت الطالبات عن أحاديثهن الجانبية، في الساحة و الممرات و على العشب الأخضر و أخذن يتحلقن حول كليوباترا التي أدارت عرضا مسرحيا فنيا صالت فيه و جالت و تحركت و أومأت و قالت حتى أنها أطلقت أحكاما مخففة و أخرى قاسية على عدد من الطالبات من زميلاتها ما لقي من الجموع نظرات من التعجب و ابتسامات تحولت لضحكات ثم لتصفيق؟! كل البنات نظرن للموضوع- إثر انتهاء الفرصة- كنكتة أو مسرحية أو محاولة لجذب الانتباه فمنهن من تقبلها وتعتبر كليوباترا جريئة قوية مسيطرة مقدامة، و منهن من هزت كتفيها و لم تعلق على الأمر و اعتبرته شيئا عابرا، و أخريات جعلن من الحدث مجالا للسخرية والتعليقات اللاذعة. و مر اليوم و انقضى.

في اليوم التالي وقفت كليوباترا في منتصف جمع من الطالبات أثناء الفسحة حيث كن يلعبن

وقررت- هكذا قالت- منع اللعبة لأنها غير راقية و لا تروق لها. فرضت سيطرتها على الموقف إلى حد خنق حرية الأخريات، تصدت لها إحداهن، إلا أن قوة ردة الفعل من كليوباترا و علو صوتها ، و رفضها الاحتجاج جعل من التراجع سيد الموقف، فضت اللعبة مع صوت الجرس.

في اليوم الثالث وقفت كليوباترا على سور المدرسة في مواجهة الطالبات و قالت: إني قد عفوت عنكن، أنا كليوباترا ملكة الحكمة و حكيمة الملكات، فاذهبن لا ملامة عليكن...؟! تعالت الضحكات من كل صوب... كان منظر وقوفها على السور المرتفع قد أثار الآذنة التي استدعت المديرة على عجل و التي قامت بإنزال كليوباترا عن عرشها و طلبت منها إحضار ولي أمرها.

في اليوم التالي حضرت أم كليوباترا إلى المدرسة و قابلت المديرة و ما هي إلا دقائق حتى بدأ العرض. صعدت كليوباترا على سطح المدرسة و قامت بقذف مئات الأوراق المرسوم عليها صورتها و تحتها

كلمات: "الملكة كليوباترا ملكة الشمال و الجنوب"... جن جنون المديرة و صاحت بها أن تتوقف و تآزرت مع أمها على إقناعها بالنزول الذي رفضت الانصياع له إلا بعد أن أخذت إقرارا من المديرة بتعليق صورتها في غرفة المديرة و الاعتراف بها ملكة للشمال والجنوب .

أعادت الأم ابنتها إلى الفصل مع كثير من الاحتضان و المحبة و مع كثير من الدموع والتأوهات... كانت كليوباترا تضحك ممتلئة نشوة وسطوة و قوة. عادت الأم إلى غرفة المديرة التي لم تفارقها، و ما أن استقرت المديرة على مقعدها حتى سمعت جلبة و ضوضاء و صراخ فقامت مسرعة لتجد أن الطالبات في حالة هياج حيث خرجت كليوباترا من الفصل ... قفزت عن السور مخلفة وراءها إعلانا مكتوبا قالت فيه أنها ذاهبة في جولة ميدانية لتفقد أحوال الرعية.

لم تكن الأم رغم ألمها و دموعها جزعة ما أثار عجب و استغراب المدرسات و المديرة. فقطعت الأم

حالة العجب بالقول: إن ابنتي سارة منذ حوالي الشهر وهي في حالة اضطراب نفسي عميقة، ترفض و تصر على الصيام على الماء و الخبز لأيام، و أحيانا ترفض مشاهدة التلفزة و تهدد بكسر الجهاز، و أحيانا ما تصرخ عبر النوافذ مطالبة أهل الحي بمساعدتها على استرجاع (ملكها) باعتبارها ملكة الشمال و الجنوب، وفي أحيان أخرى تجمع أخواتها و تلقي عليهم أوامر بالوقوف أو الأكل أو الانبطاح و آخر مرة قذفت بالكراسي من الشرفة و قررت أن القعدة العربية أفضل... و قبل أن تسترسل قاطعتها المديرة- والمدرسات حاضرات- و لماذا كل هذا؟ إنه مرض نفسي! ألم تعرضوها على طبيب؟ قالت الأم بل عرضناها على الكثير و هي تتلقى العلاج منذ خروجها من السجن الذي قضت فيه ما يزيد على العام، و اضطررنا لنقلها بعد الخروج من السجن إلى هذه المدرسة لأنها ما عادت تتلاءم مع زميلاتها السابقات. قالت إحدى المدرسات: ولماذا سجنت؟ أجابت الأم: بتهمة شرب الماء.

ما بين عجب و تبسم من الحضور، رددت الأم:

نعم بتهمة شرب الماء و أردفت أنها كانت تقف على أحد الحواجز الإسرائيلية، و قبل أن يصل دور التدقيق اللاإنساني في الهوية و الحقيبة و الجسد عطشت فخرجت من الصف و اشترت زجاجة ماء من أحد الباعة ... شاهدها أحد الجنود وركض باتجاهها و ألقى بالزجاجة من يدها.... و دخلت السجن، هكذا ببساطة؟! وعندما خرجت بعد عذاب طويل لم تفهم معه حقيقة ما حدث معها أصبحت تخاف الماء أحيانا،و في أحيان أخرى لا تشرب شيئا سوى الماء و قال لنا بعض الأطباء أن ممارسات التعذيب و الإذلال في السجن لطفلة في الخامسة عشرة قد محت شخصيتها و دمرتها فأخذت تتفحص أدوارا كان آخرها دور كليوباترا ملكة الشمال والجنوب... و كانت أحيانا بدور عبلة و أحيانا بدور الملكة فكتوريا، و كانت كليوباترا آخر الأدوار.

انزعج الحضور من المدرسات و المديرة وأسفن على هذه الفتاة الجميلة المريضة لا سيما و أنها حين الصفاء تبدي -أو كانت- نباهة و ذكاء كبيرين.

عادت الأم تجرجر قدميها إلى البيت بانتظار عودة كليوباترا من جولتها متفقدة أحوال الرعية .... حتى الآن.

فاطمة وحيواتها السبع!

هل من الممكن أن يقف أي منا على عطفة الوقت، وينظر في وادي قلبه علّه يكتشف حياة جديدة؟ طرح أحمد هذا السؤال على نفسه و على فاطمة التي بدأ يترسب منها إليه شيء من البريق، ومنه إليها كثير من القبول. اعتدلت بجلستها في المقهى، واحتضنت وجهها بيديها الصغيرتين اللتين استندتا إلى الطاولة الدائرية الصغيرة، رفعت حاجبيها وزمت شفتيها دلالة على عدم الفهم أو عدم الاهتمام بالسؤال، ولم تنطق.

عاد احمد يحدث نفسه وصاحبته بصوت عال، وهو يرتشف رشفات صغيرة من القهوة المرة كما يفضلها – قائلا: في عطفة الوقت، حيث النقلة لذيذة، نحاول أن نجد مراحل استراحة في حياتنا، نستعيد من خلالها كثيرا من متع تحقق الأهداف. عطفة الوقت هي نقلة متدرجة وأحيانا فجائية يتم فيها الغرف من بئر الذكريات، ما كان منها متعبا مرهقا منهكا ولكنه يتجاوز

الوقت لها، وتحقق الغرض الذي أحدث التعب تصبح استعادتها في أو من خلال عطفة واحدة أو عطفتان أو ثلاثة متعة تجاوز المرهق والآسن.

فاطمة تضع رأسها على الطاولة، حيث أمسكته بكلتا يديها الآن معبرة عن الضجر- ربما كانت ترغب كما هو شأن كل أنثى في كوكب عطارد أن يتناول شخصها هي بالغزل والتودد - ومحاولة أن تقول لأحمد أن كفى..كفى، ولكن لا جدوى.. لقد كان احمد يستعيد متعة اللحظات الماضية، في حيوات كثيرة، ويضيء شمعة عبر عطفة الوقت وتأثير موقف اللذة الذي جمعه بفاطمة، ولكنه أدرك مرامي فاطمة..... فعاد لطرح سؤال آخر حيث قال لها : لنتجاوز الموضوع هذا، هل توافقين؟ قالت:-بعد زفرة طويلة- نعم... قال : إذن دعيني اطرح عليك سؤالا آمل ان تجيبيني عليه بسرعة وتأمل وبصراحة قالت: وليكن اطرح أو اقسم، سيان .. ثم ضحكت.

قال: تصوري انك تسيرين على أرض لم تريها من قبل، على أرض لم يكن بواردك ان تصليها ولكنك

فجأة حطت قدماك عليها... لنفترض ببساطة انك تسيرين على ثرى كوكب المريخ... هكذا!! ما هو أول شيء تفكرين به؟! تفاجأت بالسؤال وتحيرت، وعدلت من جلستها. وقالت: اعطني فرصة للتفكير بعد أن أكمل شرب العصير قال: لا..لا، أريد ردة فعلك الأولى.... – وهي تنظر إلى الأعلى...– قالت: ليكن، بدأت تهمهم، ثم قالت: أفكر أين أنا، وفي أي زمن، وهل هذا حلم أم واقع.... ولا بد أن الخوف والقلق بدأ يعتريني فأنظر إلى الخلف والى الأمام، أنظر بكافة الاتجاهات عليّ أجد ما يدلني على وضعي، أسعى للحصول على الأمان، على الاستقرار.. في مرحلة تالية إذا نقلت قدمي بين رمال الكوكب أحاول تحسس قدمي ..... والتفاعل مع مكونات البيئة الجديدة من هواء ومناظر وأرض وحواسيب منتشرة...

لم يقاطعها لأنه كان يرغب أن تسترسل ، لقد كان يحبها أكثر وهي تتكلم...ويحبها حين تتفلسف، تعرض تجربتها المتصورة ... وعندما توقفت على باب التفاعل مع مكونات الطبيعة. قال أحمد الذي بدا منتشيا:

إذن أنت في حلم ، وهو ذاته واقع، وأنت في قلق وسعى للامان، تنتظرين مساندة، وعندما لا تجدينها تتفاعلين مع المحيط.. هل هذا صحيح؟. قالت : نعم، قال إذن لنعد ترتيب المكونات والمتغيرات هنا والتي هي: حلم – واقع – قلق – أمان – مساندة – تفاعل.

هل تقبلين بذلك؟؟ هزت كتفها الأيمن. إذن تقبلين. قالت : نعم، ولكني لم افهم شيئا حتى الآن! والساعة قد اقتربت من منتصف الليل فهلا صحبتني إلى البيت.... ونكمل في وعاء سهر آخر في يوم آخر .. ابتسم ثم وقف ووضع الحساب على الطاولة، وسارا باتجاه سيارة أجرة خارج المقهى.

فاطمة موظفة بنك، تعمل منذ الثامنة صباحا حتى الرابعة ظهرا، كل ما يشغل عقلها الأرقام حيث تستبدل الأشياء بأرقام، وتعودت أن ترقم كل مدخلات حياتها-كما هي الحواسيب المنتشرة في كل شارع وزاوية- بمعنى أن لكل شخص وحادثة وملف وموعد رقم فهي تصل البنك الساعة السابعة والنصف وهذا بالنسبة لها الحدث رقم واحد هكذا تسميه في عملها، ثم

يأتي الحدث رقم اثنين وهو السير نحو مكتبها، والحدث رقم ثلاثة وهو السلام على الزملاء، والحدث رقم أربعة وهو ترتيبات الجلوس إلى المكتب وهكذا.

وفي هذا الإطار فإن خطيبها أحمد هو الرقم أربعة بعد أبيها وأمها وأختها، وكان اللقاء في مقهى المريخ مع خطيبها يحمل الرقم 17، وعليه فهي تبني تحليلاتها بعد اللقاء 17 مع احمد الذي يعمل موظفا في مكتبة عامة وجمعتهما علاقة ودّ اثر اضطرار فاطمة التي لا تحب الكتب للتوجه للمكتبة بغرض الاطلاع على دورية تتحدث عن العلاقة بين العقل الرقمي والكواكب بتوجيه من رئيسها في العمل، وهي دورية تفرد بحوثا واسعة في مجال الروحانيات–المفقودة في أجزاء كثيرة من عطارد– ما جعل التلاقي بين الاثنين عبر كتاب.

في اللقاء رقم 18 وأثناء جلوس الخطيبين توصلا إلى معادلة سباعية تقول أن كائن عطارد بطبعه وحيد وتتمحور حياته حول ذاته، فهوّ يحب الآخرين لأنه يحب نفسه ويريد الأمان والتفاعل معهم لصالح ذاته، واستنتجا ذلك من فكرة المريخ التي كانت مكوناتها

(حلم، واقع، قلق، أمان، مساندة، تفاعل) والتي أضاف أحمد عليها راحة أو سعادة أو تلاؤم مع النفس لتصبح حياة الإنسان في سياق هذه المكونات التي يتم إشباعها كما قال احمد بالدين أو الثقافة أو الفكر أو مضامين الحاسوب.

في اللقاء رقم 19 قالت فاطمة في ذات المعقد وذات الطاولة وذات المقهى، وعلى فكرة فاطمة هي رقم 3 بين اخوانها، بينما احمد رقم 4 في حياتها بحسب القرب. وهي ما فتأت تقول له ذلك معلنة أن انتصار الحب غير المحوسب لا يعني انه يسير باتجاه شخص واحد فقط فها هي تحب أربعة دفعة واحدة وان بأشكال مختلفة ونسب متفاوته.

كان احمد متفهما.... وكيف لرجل حياته بين دفتي كتاب يوميا ألا يعيش " حيوات عدة" وألا يفهم صيغ الحب المتعددة ؟ وها هو يقترب من فاطمة خطوة تلو الأخرى حتى ليكاد يحتل في حياتها رقم واحد دون أن تحس هي أو تدري.

يتمشيان داخل المجمع التجاري الصاخب بالألوان والأجساد والأرقام والحواسيب والرجال الآليين والأصوات والنفور والتنوع..... ما بين أطفال يتراكضون ونساء جميلات يتهادين، ورجال يتوزعون على هامش المشهد.... فجأة توقفت أمام متجر يحوي مجسمات للكواكب فطلبت من أحدهما شراء مجسم لكوكب الأرض الذي يبعد عنهما آلاف السنوات الضوئية.

تخيلت نفسها تعيش على سطح الكوكب، وتخيلت أنها نفسها كائن آخر جاء من هناك ليقابلها هنا في المجمع التجاري في كوكب عطارد الذي تقطنه منذ 20 عاماً، أنها في أزمان عدة وعبر ذكريات عدة وان في عطفة من الزمن، وان في لبوس مختلف، وهي هي كأنها من نور يظهر ويختفي في تشكل حياة جديدة.

في كوكب عطارد طور السكان فكرة الحياة المتعددة لنفس الشخص وبنفس الوقت.... بحيث أن فاطمة كان يمكنها أن تكون فاطمة التي تجلس في ذاكرتها، وفاطمة الثانية هي التي تستجلب الغد،

وفاطمة الثالثة هي التي تعيش في أحد الكواكب التي تختارها ، وفاطمة الرابعة هي فاطمة النموذج عبر التاريخ، وفاطمة الخامسة هي الكائن النوراني المنزه المكتشف حديثاً والمترفع عن ماديات الحياة، و فاطمة السادسة هي فاطمة المتخيلة من قبل الشخص الأول في حياتها، أما فاطمة السابعة فهي كما تكون في سجلات الكواكب المدنية تلك المحوسبة المبرمجة والتي تشكل غالبية كائنات الكوكب.

رام الله في **2005/5/10**

أنا والفيل!

لو قلتم أنها أحبت فيَّ عينيَّ لربما لا عجب، ولو اعتقدتم أنها أحبت ضحكتي فلا استغراب، فأنا لا اكف عن الضحك ليلا نهارا ، يا أخي مبسوط ، حتى إنها تصحو في كثير من الأحيان على صوت قهقهة منفلتة أثناء نومي. ولو توقعتم أنها أحبتني لشعري الأسود الناعم المسترسل لكان لكم توقع مثل ذلك رغم إني أصلع... ولا شعرة الله وكيلكم، ولا يعنى هذا أنها لا تحبني . أو ربما لم يدر بخلدي يوما أنها تجرأت على التفكير بعدم حبي بسبب مجموعة من خصلات الشعر فارقتني منذ زمن طويل.

إذن لا غرابة أن تحبني أصلعا أو كثيف الشعر فهذا جائز كما تجوز الصدقة على المساكين وأهل السبيل في أي اتجاه كان.

بعد أكثر من عشرين عاما لم تنفلت قطرات الحب من بين أصابع يديها، ضمت كفيها طوال هذه الفترة ونثرت في سماء تظللنا كريم العبير.. بعد أكثر من عشرين عاما وهي تحبني تصوروا ذلك؟؟ لقد

ناكدتها دهرا، وشاغلتها عن روحها دوما، وأبكيتها في مساحات طويلة ولكنها أحبتني على الدوام.

هل تروني مصيبا أم مخدوعا أم كاذبا أم متبجحا أم غير قادر على استخلاص حقائق قلبها ومكنون نفسها.

- ربما... قاطعني صديقي الدائم في لعبة الورق وشريكي حيث السجن القسري في البيوت مع كل توغل أو عدوان أو إعادة احتلال إسرائيلي أو منع تجول ، وفي حالة التنفس بين اعتقال وآخر، أو ما بين جريح وشهيد، وحيث نهرب من اندثار مفهوم العيش بيننا بين الأوراق وخفقات القلوب.

- مالك تنتقل بين المواضيع، وتتحدث بلا ترتيب وكأنك جمل ثائر هارب مشتت في بيداء واسعة لم يعد يعرف فيها شكل الدروب.

- اعذرني والسادة الكرام من أصحاب المقامات الرفيعة أن أتغزل في زوجة تحملتني دهرا بل وأحبتني ...

-عاد للمقاطعة قائلا: لقد زهقتنا وكأنك تحب لأول مرة.. ماذا أحبت فيك مما لم نره، رغم إننا لا نرى فيك ما

يحب إلا هذه المساءات، وصرفك على العشاءات التي نخسّرك اياها مرارا وتكرارا في لعب الورق...

- يضحكون،
- تضحكون وليكن، ولكنكم لا تدركون ما رأته فيّ وأحبته ولن تستطيعوا أن تجربوه..
- ماذا تقول، هل بدأنا نتجاوز الحواجز وندخل في المحظور
- لا محظور ولا مجرور بل مباح وواضح...
- عاد للتأفف وبدأ يشيح بوجهه عني باتجاه اللاعبين الآخرين، وكدت افلت زمام الانتباه فأطلقت ضحكة مدوية-وهذه عادتي- أعادت الانتباه حتى أن كوب الشاي في يد احد الأصدقاء انزلق على حضنه فقام يسب ويشتم وتقدم مني
- قل لنا لماذا تحبك لقد حرقتنا شوقا وشايا؟! ...
- أجيبوا عن سؤالي أولا ..
- قالوا بصوت واحد: تفضل وخلصنا.
- ما هو الشيء الذي يميز الفيل، ويجذب الإناث إلى الذكور بينها؟

- قال صديقي الأول: رشاقته... وضحك.
- وقال الثاني: خرطومه الطويل.
- وقال الثالث: حسن عشرته.
- وقال الرابع وقد جاء راكضا من المطبخ وجلس متربعا أمامي ليقول أنا من وجدتها لقد أحبتك ليس لكل ما قلت وليس لكل ما قالوا، وإنما أحبتك لأنك ثرثار إلى درجة تكمم فيها أفواه الآخرين، ولا تسمح لأحد بالحديث، فأحبت رجلا لا يصل البيت إلا للنوم أو تقديم المصروف، ويغيب طوال النهار في عمله وطوال الليل بين أصدقائه، فلا تسمع ثرثرته ... هه، أليس كذلك؟
- قلت: أبدا ما أراك وصلت الحقيقة، بل وابتعدت عن الفيل ...

كانت لعبة الورق قد توقفت والأصدقاء يتناولون أكواب الشاي بين مضطجع ومتكيء، وبين مبتسم ومتململ... وكلهم في شوق لسحب لساني وتعليقه في كلاب صاحب الملحمة المجاورة لبيتي... هكذا قرأت في عيونهم، وما زالوا

ينتظرون سماع الجواب، ولعلمكم لو انتهيت من هذه النقطة فمقدرتي على غيرها لا تجارى .. أراكم اقتنعتم بذلك!!

ما زالوا ينظرون في وجهي، بل يحدقون بكل عصبية، يترقبون حركة شفتاي ... وأراني مستمتعا بتحفزهم وخائفا من ردة فعلهم لو نطقت بالجواب.

هل تروني مضطرا للإجابة، وللحب إشكال وألوان، أم تروني أفلسف الرد أم هل باستطاعتي أن اطرح عليهم سؤالا جديدا لا سيما وهم لم يستطيعوا الإجابة عن سؤال الفيل؟

هل أقول لهم إن عوامل الراحة والانسجام والوئام والطلاقة والمرح التي تميزني وتميز الفيل هي العامل المشترك وهي ما يجعل زوجتي تتمسك بي وترتبط كما يتثبت الرضيع بصدر أمه، وكما يحب الناس الشمس تذوب في أقداحهم حين الشتاء، والثلج يظللهم حين استواء الشمس في صيف اللهيب... حزمت أمري بعد دقائق من النظرات المستفزة المستنفرة والصاخبة صمتا من الأصدقاء الجالسين يحتسون الشاي.

-قلت : سأقول لكم فلا تغضبوا ... وكأنهم نفضوا من محيط أفكارهم التجوال بين الاحتمالات، وأنجزوا مسح ما التصق في شاشة عقولهم وأصبحت بيضاء جاهزة لتقبل ما سيكتب عليها... خاصة وأنني فنان في الإثارة كما لاحظتم عفوا... لربما أطلت عليكم انتم أيضا كما أطلت على صحبي.

-قلت : سأقول لكم فأحسنوا الاستماع.. لقد أحبتني لأنها مغرمة بأحد أعضاء جسدي...

- فغر الجمع أفواههم !!

- لا يا سادة يا لئام ليس كما تفكرون، لعنة الله على بذاءتكم... لو استطعتم تحديد ميزات الفيل لرأيتم فيّ المثيل أو النقيض، الشبيه أو المخالف.

- قال صديقي وشريكي: نحن نستمع، بكل صبر وتأني، فلا تعد لتلف وتدور وهات ما عندك رحم الله جدك حتى الجد التاسع عشر.

- وهل من صفاتي ذلك.

- عدنا للدوران يا مهراجا؟!... تكلم وإلا حشوت كبدك تبنا.

- لا أريد أن أطيل عليكم

ووقفت ...فوقفوا جميعا وكانوا أربعة، نظرت نحو الباب المفتوح وقست خطواتي ثم انفتح فمي بين المترقبين ونطقت

- إن من أهم مميزات الفيل الجسدية خرطومه ومتانة جسده وعظم أرجله وكبر أذنيه وأنيابه العاجية...
- فقال احدهم: لقد عرفت، لقد أحببت فيك إذن أنيابك العاجية... أليس كذلك.

وانفجر ضاحكا مع نظرات تأنيب من الآخرين الذين ما زالوا ينشوون بنار الشوق للمعرفة... ورمقوني بنظرات حادة تقول: إما تقول وإما سنخبط في بطنك. فآثرت أن أتكلم فلست بمستغني عن بطني أو كبدي.

- انتم من قاطعني ... ومع ذلك أقول لقد أحببتني لأن عضوي جميل وصغير ولا يكبر مع كبري في العمر كما هو الشأن مع الآخرين.
- قالوا بصوت واحد: تكلم... ما هو هذا العضو اللعين ؟!

- قلت: لقد أحببت، فيّ أذنيّ الصغيرتين الجميلتين اللطيفتين...
- قالوا : بس هذا هو؟!
- قلت: نعم.

وأطلقت ساقيّ للريح، ولكن إلى أين ، فمنع التجول مازال قائما.

رام الله في **2005/5/27**

متحف سلمى

حتى الطلاء على اظفارها كان يسبب لها إحساسا بالضيق، و قلما تجد شخصا في هذه البلاد لا يتضايق من شيء...هكذا قالت سلمى التي تتضايق من مدخل البناية التي تسكنها حيث أن أحد البلاطات تصدر صوتا حين الدوس عليها، و تتضايق من لون باب شقتها البني المائل الى الحمرة....ولا تطيق صوت المصعد وهو يتحرك ويصل الى مسامعها وهي راقدة وقت الظهيرة....و تضيق ذرعا بصراخ الجيران ومواء القطط ونباح الكلاب.

سلمى الموظفة في وزارة السياحة في بلد حيث السياحة مورد رئيس ولكنه معطل قسرا، أصبحت عبارة عن أرشيف متنقل للمواقع السياحية....فآلاف المساجد والكنائس والمقابر والمشاهد والبيوت والاضرحة الأثرية تنتشر في طول البلاد وعرضها.....وتضيف سلمى في شرحها لأحد الوفود الأجنبية القليلة: وهي-أي الآثار- إما خاصة بحضارة معينة أو بدين محدد، أو تتنازعها

ديانتـــان أو أكثـــر، وأحيانـــا تتقـــاطع فيهـــا بمـــودة وسلاسة.....المهم أن سلمى التي لم تستطيع منذ ســـت سنوات أن تدعي قدرتها على استجلاب تمويـــل أجنبـــي لترميم أثر واحد أصبحت قعيدة بؤس السياحة وركودها لأن الوطن يواجه سيلا غير منقطع من المحن والمآسي التي كثيرا ما قالت فيها سلمى: إن هدف الاحتلال هـــو تعطيل استفادة الناس من تاريخهم وآثـــارهم ذاك الـــذي سيدر عليهم مالاً وفيرا يستغنون به عن العمـــل لـــدى الاحتلال.

لقد أحبت سلمى آثار بلدها حتى حولـــت بيتهـــا- الذي تتضايق من بابه ذو اللون البني المائل للحمـــرة- الى متحف، وهو الشيء الوحيد في حياتها الذي يجعلها تنتصر على ضيقها وعلى الاحـــتلال.... وتفـــرج عـــن نفسها. كانت تنتقل مع الوفد الأجنبي في جنبات بيتها – شقتها الواسعة- وتشرح لهم تاريخ البلاد مـــن خـــلال متحفها الخاص محاولة التخلص من شعورها بالضـــيق وهي لا تكف تعبث بالطلاء على أظافرهـــا بامتصـــاص التراث والتاريخ عبر دفقات من التفاؤل لا تكـــف عـــن

أخذها ....مدت يدها الى حقيبة خاصة واستلت منها أمام الوفد حقنة السكري الذي أصبح ملازما لها من ست سنوات عجاف.

2006/4/1

الفهرس